مجلة الرائد

العدد : ١٩٠ الموافق في محرم ١٤١٨ هجري ٦ / ١٩٩٧ ميلادي

عنوان المقال : التربية من خلال مناهج – أنواع التربية –	بقلم : متولي موسى

إذا طلبنا من المشتغلين بالتربية في العالم الإسلامي أن يضع كل واحد منهم منهجاً تربوياً ، فإننا نحصل على مناهج بعدد المؤثرات الفكرية والثقافية التي اكتنفت حياة هؤلاء المربين. لأن الإنسان ينفعل بما يحيط به ويتفاعل معه ، وهذا الذي يجعلنا نميز بين ألوان من التربية.

أولاً : العملية التربوية ليست من منجزات العصر

أول ما نلاحظه في التربية هو أن العملية التربوية متطورة [1] ، وإذا أردنا أن نعرف ما إذا كانت من اكتشافات العصر أم أنها وجدت من زمن طويل ؟ فيجب علينا أن نرجع إلى كتاب موثوق يحدثنا عن التاريخ ، ولن نجد أوثق من القرآن الكريم ، كلام الخالق سبحانه العليم بخلقه الخبير بهم...

وبالرجوع إلى القرآن يتبين لنا : أن الله تعالى خلق آدم وعلمه الأسماء كلها ، وأرشده وزوجه ، قبل هبوطهما إلى الأرض مع إبليس ، إلى المنهج الذي يجب اتباعه ، وبين لهما عاقبة الطاعة وعاقبة المعصية. وذكّر الله تعالى بكل ذلك فقال سبحانه : { **وعصى آدم ربَّهُ فغوى ❋ ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى ❋ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوّ فإما يأتينكم مني هدىً فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ❋ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً ونحشره يومَ القيامة أعمى ❋ قال ربِّ لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ❋ قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى** }[طه:١٢١-١٢٦].

وقام آدم بتربية أبنائه على منهج الله تعالى ، ونهض الأبناء من بعده بتربية أبنائهم بما توفر لديهم من معلومات وتجارب... ولقد تأثرت الأجيال اللاحقة بتجارب الأجيال السابقة الإيجابي منها والسلبي... ولذلك أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية إلى المنهج الصحيح ، وكانت مهمة هؤلاء الرسل تربية من استجاب لدعوتهم... ويفيد هنا أن نقف وقفة تأمل أمام دعاء نوح عليه السلام على قومه : { **وقال نوح ربّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً ❋ إنك إن تذرْهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً** }[نوح:٢٧و٢٨] ولا شك أن نوحاً عليه السلام لا يعني أن أولاد قومه يولدون كافرين فطرة ، وإنما يعني أن الآباء الكفار ينشئون أبناءهم على الكفر والفجور. وهذا الذي عبر عنه الشاعر

بقوله :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وأخيراً فقد جاءت الوصايا التربوية في القرآن الكريم على لسان أنبياء ورسل وعلى لسان لقمان ، وذلك لتستفيد منها الأجيال ، وأرشد الله تعالى الأجيال اللاحقة إلى أخذ العبر والعظات من سير السابقين ، والاستفادة مما حدث لهم ، والتفكير الجاد في اختيار الصراط المستقيم والاستقامة عليه ، ولا يكون ذلك إلا بالتربية وتأهيل النفس لذلك.

نخلص من هذه الإشارات المختصرة إلى أن التربية ليست من منجزات العصر ، وإنما وجدت مع خلق الإنسان ، والمربي الحق على الإطلاق هو الله تعالى ، فهو الخالق وواهب المواهب ، وهو الذي سنّ سنناً لنموها وتدرجها وتفاعلها... وأن التربية لا بد أن تستضيء بنور الوحي ، فعمل المربي تالٍ وتابع لخلق الله ، كما أنه تابع لشرع الله تعالى ودينه وأحكامه.

نعم ، لقد ساهم العصر بما وفره من علم وتطور تقني في تطوير أساليب التربية ووسائلها ، ولا يمكننا أن ننكر ذلك ، وعلينا أن نستفيد من كل ما أبدعه الإنسان... فبعد أن كانت العملية التربوية في الماضي تعتمد على المدرس الخاص والمؤدب والوالدين... أصبحت المدارس والجامعات والمناهج الموجودة والوسائل الهائلة من صحف ومجلات وراديو وتلفزيون وكمبيوتر وشبكة الإنترنت تحتل مكانة كبيرة... وبعد أن كان الدرس المحدود والخطبة والموعظة... وسيلة التعلم والتلقي ، أصبح الشريط والفيلم والتربية بدراسة الحالات وسائل تربية مؤثرة... ولكن ستظل هناك ثوابت في الأهداف التربوية وأهمها : تنشئة وتربية الإنسان على تصور معين للكون والحياة ، وعلى مفاهيم محددة للخير والشر ، والصلاح والفساد ، والهدى والضلال ، والاستقامة والانحراف ، والسعادة والشقاء ، والحاجة إلى التغلب على مشكلات الحياة والتنمية والمواطنة ، وكيفية الاحتفاظ بالهوية الثقافية... الخ

ثانياً : أنواع التربية : بالرجوع إلى القرآن والسنة يتبين لنا أن التربية أنواع ، نُذكر منها هنا بما يلي :

النوع الأول : **تربية خِلْقية :** أساسها : الخلق والتسوية والتصوير ، ولإدراك هذا الأساس علينا أن نتدبر قول الله تعالى :

❋ { **الذي خلق فسوّى** }[الأعلى:٢] ، {**ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** }[التين:٤].
❋ { **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** }[الأعراف:١١] ، { **وصوركم فأحسن صوركم** }[غافر:٦٤].
❋ { **الذي خلقك فسواك فعدلك ❋ في أيّ صورة ما شاء ركبك** }[الانفطار:٧-٨].

وهذه التربية يكون بها نمو الإنسان وكمال إحساسه وقواه النفسية والعقلية ، وقد يسر الله تعالى أسباب هذه التربية المادية منها والمعنوية ، فيسر وسائل الغذاء والشراب والكساء والإيواء الحلال ، كما يسر أسباب حفظها وتقويتها وتطويرها ، ويسر سبحانه وتعالى للإنسان سبل التعلم ، وفتح له أبواب الارتقاء في العلم والاستزادة منه.

النوع الثاني : **تربية هداية فطرية** ، أساسها البدن والنفس والقلب ، حيث يختار أهل الإدراك من بني آدم ما يناسبهم ويميلون إليه بعد التفكر والتدبر ، فقد أودع الله تعالى في كل إنسان الاستعداد للتقوى والفجور ، فإذا نظر الإنسان في آيات الله الكونية والشرعية وعرف ربه وآمن به ، فقد طهر القلب وزكى النفس ، وإذا لم يؤمن فلم يطهر قلبه ودسّى نفسه ، قال تعالى : { **ونفس وما سوّاها ❋ فألهمها فجورها وتقواها ❋ قد أفلح من زكّاها ❋ وقد خاب من دسّاها** }[الشمس:٧-١٠].

النوع الثالث : **تربية هداية تشريعية :** أساسها الأحكام والنظم التي أنزلها الله تعالى في كتبه وعلى رسله ، قال تعالى : { **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ❋ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً** } [الإسراء : ٩ - ١٠] ، وأوصى الله تعالى بها إلى رسله وخاتمهم محمد ﷺ ، قال تعالى : { **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ❋ والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون** }[الأنعام:٤٨-٤٩].

بهذه التربية تتضح السبل لأهل الإدراك من بني آدم ، فيختار أولو الألباب سبيل سعادتهم في الدارين ، ويختار أهل الضلالة سبيل الغيّ فيكون سبباً لشقائهم في الأولى والآخرة.

النوع الرابع : **تربية معيشية :** أساسها التسخير ، قال تعالى : { **ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** }[لقمان:٢٠] ، وقال عز وجل : { **وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** }[الجاثية:١٣]. وفي ذلك تيسير للإنسان في طلب الرزق والحصول عليه حسب تقدير الله تعالى ، كما أنعم الله تعالى على بني

آدم بنعمه التي لا تحصى لتستقيم الحياة ولا يقع التظالم ، وليتدبر الإنسان قول الخالق سبحانه : { **أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون** }[الزخرف:٣٢].

وجاء خاتم الأنبياء والمرسلين ليدل الناس على كيفية تسيير الحياة المعيشية ، فقال الله عز وجل : { **الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيباتِ ويحرم عليهم الخبائثَ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** }[الأعراف:١٥٧].

ولا بد هنا من إدراك أن تفاضل البشر في الأرزاق سنة اجتماعية ، وهو إرادة الله تعالى ، وهذا التفاضل والتمايز إنما هو للابتلاء والاختبار ، { **والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فُضلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون** }[النحل:٧١]. فقيمة الأرزاق في التصرف فيها طبقاً لهداية الله سبحانه ، فإذا أدرك العاقل أن الحرمان والفقر هو للابتلاء تطهر قلبه من الحسد واليأس.

الخلاصة : تلك الأنواع الأربعة بجملتها هي جماع ما أنعم الله سبحانه وتعالى به على بني آدم ، فما من خير يُنعم الله تعالى به على الإنسان في نفسه بالاطمئنان ، أو سعادة ذاتية أو اجتماعية ، إلا كان أثراً من آثار هذه النعمة الكبرى ، نعمة التربية على الإسلام ، وما من عارض يعرض للإنسان فيبعده عن طريق الخير والسعادة إلا كان أثراً من التربية على غير الإسلام ، وهذا ما أرشد الله تعالى إليه في قوله : { **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** }[فصلت:٣٣] ، وقوله سبحانه : { **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** }[آل عمران:٨٥].

والله تعالى أسأل أن يوفقنا للانتفاع بنعمة التربية على الإسلام.

الهوامش :

(١) راجع فصل : تطور العملية التربوية من كتاب « تربية الطفل في فترة الحضانة » للكاتب.